

في المشهد القومي

يحيى يخلف

اللوحه السيراليه التي نشاهدها كل يوم على شاشات التلفزة تنبىء عن فوضى، ودم، ومنافي، وجزر معزولة، ولحى، وتكفيريين، وفشائيات لها أنياب، وبرامج حوار يتقدم فيها المحللون المتقاعدون، ويغيب عنها المفكرون والمثقفون..أحاديث في الهواء عن ديموقراطيات بلا ضفاف، لا تعباً بمواطن عربي مقهور، والعنزة المذبوحه تسخر من العنزة المسلوخة، ووزراء من دول كبرى يتدخلون لصنع أقدارنا، وتقاسم النفوذ على منطقتنا، وحديث عن جنيف ١، وجنيف ٢ يتماهى مع ذاكرة سايكس بيكو، ولا حديث عربي عن الجرح العربي، وكل بمنفاه وجزيرته المعزولة، وتيارات اسلاموية جاهزة ومعلّبة وتيارات اسلاموية مستوردة تقفز على أكتاف الشعب العربي البسيط من جماهير المثقفين والمتعلمين والطلبة، وصغار الكسبة، وعبر الفضائيات يتحدث ليبراليون وعلمانيون، ولا حديث لقوميين، ولا حديث عن وحدة المصير القومي، أو التضامن العربي..وفي الميادين والساحات التي تشهد حراكا شعبيا لم يرفع أحد شعارا واحدا ذا بعد قومي، ولم يتحدث أحد عن وحدة المصير القومي، واختفت شعارات الماضي عن الوحدة العربية كهدف من أهداف حركة التحرر العربي، وتراجع دور الجامعة العربية، واصبح صوت البعض داخلها صدى للتدخلات والمصالح الإقليمية والدولية.

لم يعد هناك حديث عن تطوير العمل العربي المشترك، أو التجمع في كتلة تاريخية تنتزع للأمة دورا في المشهد الدولي تكون فيها اللاعب الأساس في تقرير مصيرها، وحماية سياساتها واقتصادها وثرواتها، ومستقبل أجيالها.

لم يعد هناك حديث عن وحدة اللغة والتاريخ والجغرافيا والمصالح العربية، لم يعد هناك حديث عن الوحدة في مواجهة التجزئة، بل كبرت المخاوف من القادم الذي يهدد بمزيد من التقسيم والشذمة والإنفصال، ذهبت جهود قسطنطين زريق، ساطع الحصري، زكي الأرسوزي، محمد عزة دروزة، بطرس البستاني، جورجى زيدان، ومئات غيرهم، وحركات سياسية وفكرية من ناصريين وقوميين عرب، ذهبت واختفت من المشهد، ولم نعد نقرأ دراسات حول نقد وتجديد الفكر القومي، بل ان أحد المفكرين وهو فهمي الجدعان وصل الى استخلاص في كتابه (في الخلاص النهائي) أن التيار القومي لم يعد له وجود حقيقي، وان الجدل والصراع سيكون بين التيارات الإسلامية والليبرالية والعلمانية.

لا شك ان التيار القومي قد أصيب بنكسة بسبب ربط الفكر القومي عند الممارسة بالقمع والديكتاتورية من قبل أحزاب رفعت الشعار القومي، وعندما وصلت الى السلطة أقامت نظاماً بوليسية قمعية لسيطرة الحاكم الفرد مثلما حدث في حزب البعث، ومثلما حدث في نظام ليبيا القذافي، فضلاً عن ان بعض القوى الأخرى كحركة القوميين العرب تحولت الى الماركسية، ثم الى قطرية.

إن الأنظمة الاستبدادية التي حكمت باسم القومية العربية الحقت أضراراً فادحة بالتيار القومي، وحين الوقت لتقييم هذه الخسائر، وتجديد فكر هذا التيار، وإعادة الإعتبار له، وإعادة النضارة لمحتواه، بحيث يربط بينه وبين الديمقراطية والتعددية والدولة المدنية وسائر المطالب التي نادى بها الجماهير في ما أسميناه الربيع العربي.

لن يكون للدولة القطرية العربية قيمة ومكانة اذا استمر هذا التشرذم، ولذلك فإن الوحدة على أساس المبادئ والمصالح، وعلى اسس تحتوى على شيء من الليبرالية وفصل الدين عن السياسة، وتوسيع الحريات العامة والعدالة والكرامة الإنسانية، ستكون ان عاجلاً أم آجلاً مطلباً وضرورة اذا استكمل الربيع العربي غياته وأهدافه، واذا استهدفت هذه الصحة التحرر السياسي والإقتصادي والإجتماعي وحماية هوية الأمة، والتخلص من التبعية خاصة انها تواجه في الإقليم قوى تحاول النيل منها وفي مقدمة هذه القوى اسرائيل واطماعها الصهيونية.

لماذا لا نفكر في ظل هذه الفوضى بما هو أساس وبما هو جوهرى، ولماذا لا يساهم المفكرون في الحوار حول وحدة المصير القومي، ولماذا لا تكون للوحدة بين اقطار العرب اشكال جديدة كوحدة أوروبا التي لايربط دولها لغة ولا تاريخ مشترك، لماذا لا يكون اتحاد عربي على غرار الإتحاد الأوروبي، له سياسة خارجية واحدة وله عملة موحدة، وله نظام اقتصادي موحد، وبهذه الصيغة

يحظى بمكانة دولية، ويعتبر احد أبرز صناع القرار في العالم.

تحدث كثير من المفكرين ورجال السياسة عن أن الدول الصغرى ستدفع ثمنا باهظا في زمن العولمة، وأن الكتل السياسية الكبرى هي التي ستنتعش في ظل العولمة وثورة التكنولوجيا، وغني عن القول ان الوطن العربي سيدفع الثمن الباهظ اذا بقيت مكوناته دولا قطرية منعزلة، لذا فتوَحُّدُها مصلحة عليا، والإتحاد العربي القائم على مبادئ الحرية والديموقراطية والعدالة هو البديل عن صيغة الجامعة العربية. وفي المشهد الوجدوي فإن الشعب الفلسطيني سيتمكن من التخلص من الإحتلال، لأن العامل العربي أحد ابرز العناصر المؤثرة في مسار القضية الفلسطينية، وغني عن القول أيضا ان الشعب الفلسطيني يقف في الخندق الأمامي للدفاع عن الهوية العربية بأبعادها القومية والإنسانية.